للناس ولا يكتموه ، فاذا تعسر أو تعذر على بعضهم فهم الآية أو الحديث بعد بيانه بقدر الاستطاعة خرج المفتي من تبعة الكتمان . واما المسائل التي لا نص فيها بعينها ويتعذر على السائل فهم مأخذها ، كبعض مسائل المواريث التي يدخلها العول مثلاً ، فلا بأس ببيان الحكم فيها بدون ذكر مأخذه . واما تعويد الناس اخذ مسائل الدين بدون وصلها بأصلها من الكتاب والسنة فهو قطع لحبل الله ورسوله بين المؤمنين ، وهو الذي فتح للباطنية وغيرهم من المضلين ، باب اضلال المسلمين . اذ صارت العامة تقبل كل ما يقال لها انه من الدين . — فهذا سبب ما رأيتموه وسميتموه اشتراطاً ، ولولا ضيق الوقت لراجعنا ما تشيرون اليه من مظانه واجبنا عنه بعينه ، والخطب سهل ان شاء الله تعالى .

باب الانتقاد على المنار

﴿ نقد عبارة في المنار ، والمناظرات بين دعاة النصرانية وعلماء الاسلام ﴾

ارسل الينا طاهر افندي التنير من بيروت نبذتين في الرد على دعاة النصرانية الذين فتح لهم الدستور باب الجرأة على توزيع رسائل الطعن في الاسلام في سورية حتى قاربوا ان يجهروا فيها كما يجهرون في مصر ، وقد رأينا في كل من النبذتين شذوذاً في التعبير فحذفنا ونقحنا وتصرفنا في العبارة بحذف بعض المعاني الشعرية التي تؤثر تأثيراً رديئاً بلا فائدة . وقد ظهر لنا بعد ذلك انه بقي في الكلام ما ينتقد على الكاتب ، وكذا على الناشر ، لانه يؤلم القارئ من النصارى ، اذ كاشفنا بعض اصدقائنا السوريين بما انتقدوه ، وقالوا ان مثل هذا لا يعهد من المنار فهو يرد على المبشرين من سنين طويلة ولم ننتقد عليه كلمة واحدة تعد جارحة أو بعيدة عن الأدب ، ثم انه قد عرف بانه داعية وفاق ومودة ، فلا ينبغي له ان ينشر لمن لا يراعون مشربه هذا ما ينافيه . فرأينا ان نكتب كلمات في هذا الموضوع تزيل اللبس ، وتكون هي القول الفصل ، وهي :

(١) اننا نحمد الله تعالى ان جعلنا من دعاة الوفاق والمودة ، ومن محبي الأدب والنزاهة وانه ليسوءنا ويحزننا ان نقع في سهو او غلط ينافي ذلك ويعارضه ، واذا عثرنا سارعنا الى التوبة والندم ، وتلافي ما يمكن تلافيه بما تحمله الطاقة ، وتناله الاستطاعة .

(٢) ان المنار لا يشترك فيه النصارى كما يشترك المسلمون في صحفهم الدينية — دع السياسية التي تسمى عامة — فلا يوجد في مشتركيه عشرة نفر من النصارى ، لاجل هذا لا يخطر في بالنا عند كتابة كل شيء او نشره ان نراعي فيه موقعه من نفوسهم ، وتأثيره في وجدانهم ، والأدب مطلوب عندنا لذاته ، وانما يطلع عليه عندنا قليل من أهل العلم والأدب كأصحاب الصحف التي يبادلها المنار ، وهؤلاء من الاحرار اصحاب الصدور

الواسعة ، فاذا هم استنكروا شيئا لا يذيعونه في جمهور قومهم ، ونتيجة هذا أن ما ينشره المنار لا تأثير له في عامة النصارى حتى يقال ان المجلات كالجرائد يجب ان يراعى فيها شعور جميع الملل التي تقيم في الوطن التي تصدر فيه او تنطق باللغة التي تكتب بها . فهو اذا من كتب الاسلام الدينية ، فلا وجه لمطالبتنا بأن نراعي شعورهم فيه ، ولا لدعوى ان ما ينشر مخالفا لعقائدهم او ردا عليها يوجب التفرقة والعداوة .

(٣) إن دعاة النصرانية هم المعتدون على المسلمين بالطعن في دينهم بما ينشرون من الكتب والرسائل والصحف ، وبما يعقدون من المجامع لدعوة المسلمين الى دينهم وفي مدارسهم ومستشفياتهم ، فصار من الواجب علينا شرعا أن ندافع عن ديننا ، وننفر عوامنا عن قبول دعوتهم . فالفرق بيننا وبينهم انهم مهاجمون ونحن مدافعون ، وانهم يكتبون مطاعنهم لينشروها في المسلمين ، كما يبثون مطاعنهم القولية فيهم ، ونحن لا ننشر مطاعننا بين النصارى ولا نشافههم بها ، ولا يكاد يطلع عليها الا عدد قليل من محبي الوقوف على الشؤون العامة . فمن ينتقد ما نكتبه بدعوى انه يوجب العداوة والتفرقة بين عامة الفريقين مخطىء ، وانما يكون مصيبا اذا قال ذلك فيما يكتبه اهل ملته ودينه ، لانهم ينشرونه بين المسلمين فينفرونهم من النصارى ، ولا يغفل عن هذا او يتغافل عنه الا الغالي في التعصب .

(٤) قال بعض اصحابنا إن الطاعنين في الاسلام من النصارى كلهم من الاجانب كالامريكانيين والانكليز لا من ابناء وطننا ، فلا ينبغي ان نسيء الى ابناء وطننا بردنا عليهم . ونقول (اولا) أن هذا القول غير صحيح ، فكتاب (الضلالة) المسمى بضد اسمه تأليف رجل من متعصبي القبط وهو اقذر هذه الكتب وأقلها أدبا في الطعن في نبينا صلى الله عليه وسلم ، وكتاب ابحاث المجتهدين مؤلفه سوري ، بل اقول ان اكثر تلك الكتب والرسائل والصحف الطاعنة في الاسلام يكتبها أجراء المبشرين من الوطنيين او يترجمونها اذ لا يكاد يوجد في أولئك الاجانب من يحسن الكتابة العربية ، وانما ينشرها الاجانب لان لديهم أموالا كثيرة مرصدة لذلك من اهل بلادهم الذين يقولون لنا ابناء وطننا انهم هم البرآء من التعصب الديني دون اهل الشرق ، ولان لهم من الامتيازات والنفوذ السياسي ما يحميهم من سلطة الحكومة . ونحن نرى جمهور الوطنيين من ذنب أولئك الاجراء ولا نعده مانعا من الاتفاق بيننا وبينهم (وثانيا) اذا فرضنا ان هذا العدوان من الاجانب خاصة ، فهل من العدل ان يطالبنا نصارى بلادنا بأن لا نرد عليهم ، ولا نحذر عوامنا ونحول بينهم وبين افسادهم لعقائدهم ، لان دفاعنا عن ديننا يجرح عواطفهم الدينية ؟؟ أليس منتهى التعصب والسعي للعداوة والتفرق ان تطالب ابن وطنك بان يترك الدفاع عن دينه ، وتعليم اهله ما يصونهم عن الارتداد عنه ، أو عن فساد العقيدة الذي قلما تنتج دعوة المبشرين

غيره، وأن يرضى بأن يكذب قرآنه ويشتم رسوله، إكراماً لخاطرك، ومراعاة لعواطفك؟

(٥) ان القاعدة الصحيحة المعقولة للاتفاق هي قاعدة المنار الذهبية التي دعا اليها المختلفين في المذاهب والاجناس من المسلمين، والمختلفين في الاديان والاجناس من العثمانيين . وهي « نتعاون على ما نشترك فيه . و يعذر بعضنا بعضاً فيما نختلف فيه » وقد شرحناها غير مرة ولكن كثيرا من الناس لا يحبون الوفاق ، ومنهم اعوان المبشرين من الوطنيين ، و بعض الكتاب والصحافيين ، كالشيخ يوسف الخازن من نصارى السوريين، الذي وضع قاعدة للخلاف، ضد القاعدة التي وضعتها للوفاق ، وصرح بها في ملاء من أدباء نصارى السوريين كنت اكلمهم في وجوب السعي الى الوفاق والوحدة . فسخر من هذه الدعوة ، وقال : اذا كان الخلاف بين مسلم ونصراني فأنا مع النصراني على المسلم كيفما كان– أي في الحق والباطل، واذا كان بين كاثوليكي وغير كاثوليكي فأنا مع الكاثوليكي مطلقا ، واذا كان بين كاثوليكي ماروني وكاثوليكي غير ماروني فأنا مع الماروني مطلقا قال وكل الناس كذلك . فمثل هذا لا يعذر المسلمين في كلمة يخالفون فيها النصارى ولا بقولهم ولو في كتبهم وصحفهم الخاصة بهم انناعلى الحق والطاعن في ديننا على الباطل. ولذلك اقام النكير على المنار مرة لانه ذكر اسم المبشرين في سياق الكلام على ما افسد بلادنا من سعي فساق الافرنج كمواخير البغاء وحانات الخمر و بيوت القمار . ونحن نرى المبشرين اشد إفسادا في بلادنا من غيرهم لان صاحب الحانة يحمل المسلم او يساعده على مخالفة الاسلام في امر واحد وهو السكر ، والمبشر يحمله على ترك دينه كله ، وزد على ذلك ان المبشرين هم الذين يوقدون نار العداوة بين المسلمين والنصارى و يفسدون المسلمين انفسهم بتشكيكهم في الدين الذي هو اساس الفضيلة والتقوى والوحدة والاتفاق . فمثل الشيخ يوسف الخازن من متعصبي النصارى السوريين ، و بعض اصحاب الجرائد من متعصبي القبط، اشد سعيا في التفريق بين المسلمين والنصارى من المبشرين الاجانب، لانهم يبحثون عن كلمة يقولها مسلم في الدفاع عن دينه فيجردونها عن سببها والحامل عليها من الأعذار ويزفونها الى قومهم في صورة مشوهة وإضافات باطلة . وما بلغ المكروه الا من نقل

(٤) ان مجالنا في الرد على النصارى اضيق من مجالهم لاننا نؤمن بنبيهم المسيح ونعظمه ونعظم حوارييه ، ونعد الطعن فيه كفرا وردة عن الاسلام (لا نفرق بين احد من رسله) وهم يطعنون بلاقيد ولا حد . فغاية ما يمكن ان يكتبه المسلم هو النقل من كتبهم الدينية او كتب احرار الاوربيين بشرط اظهار البراءة من كل مالا يليق بكرامة المسيح اوغيره من انبياء الله صلوات الله وسلامه عليهم اجمعين، والتصريح بأن نقل ما ذكر من باب (ناقل الكفر ليس بكافر) وانا لا احب لنفسي سلوك هذه الطريقة ، وهي التي اضطر اليها بعض من كتب في المنار ، وكتابة التنبير من

هذا الباب، وانى حبا في النزاهة والادب، وكراهة للشعريات في المناظرة والجدل، عملا بقوله تعالى (ولا تجادلوا اهل الكتاب الا بالتي هي احسن) قد نقحتها ، فاذا كان قد بقي فيها كلمة شاذة ككلمة الثالوث الزنائي في سياق قصة ولادة سليمان عليه السلام ، فانما ذلك من السهو الذي يظهر بما نبين من سببه ،وهو ان الكاتب جعل عنوان مقالته (الثالوث الزنائي المقدس) وصدر الكلام في كل قصة من القصص الثلاث التي نقلها من التوراة بقوله (الاقنوم الاول من الثالوث الزنائي المقدس) الخ وكان يختمها بمثل هذه الكلمة ، و يكررها في أثناء العبارة ، فرجنا (شطبنا) كل هذه الكلمات لان فيها امتهانا لاصطلاحات محترمة ، وغرضنا من تحذير عوام المسلمين من الاستجابة للمبشرين لا يتوقف على ذلك ، ولا هو مما ترضاه آدابنا ، وجعلنا مكان كلمة الاقنوم كلمة الجد ، وحذفنا لفظ الثالوث من العناوين ومن تضاعيف الكلام ، واتفق اننا لم نقرأ تلك الاوراق في وقت واحد لكثرة الشواغل وضيق وقتنا عنها، ولذلك جعلنا في القصة الثالثة لفظ (الشاهد) بدل (الجد) و بقي في آخرها كلمة « الثالوث الزنائي » على اني اتذكر جيدا اني حذفت هذه العبارة التي كانت في العنوان الاول وتكررت في الكلام . فلا أدري أكان ترميجها (شطبها) غير ظاهر فجمعت حروفها، ام كنت قد نسيتها لاني قرأت تلك الورقة التي هي فيها وحدها . ولهذا قلت فيها الشاهد الثالث بدل الجد الثالث . وقد ظهر بهذا الذي شرحته ان هذه الكلمة قد بقيت في المقالة كالعضو الأثري . وان اللام فيها لام العهد الذكري، اي الثالوث الذي تقدم ذكره . واني لما ذكرت لي ماصدقت حتى راجعت و رأيتها بعيني . وقد امتعضت امتعاضا شديدا ظهر علي وسئلت عن سببه . فان من خلقي وغريزتي أن اتألم مما يقع مني مخالفا لمشربي ورأيي، ولو سهوا او نسيانا . ولا أبالي بما ينتقده الناس اذا كنت اعتقد انه حق وصواب وغير خارج عن حدود الآداب . ومثل هذا الغلط والسهو يقع كثيرا وفي هذا الجزء من المنار غلط في آية من القرآن غفلنا عنها . لاجل هذا قلت لمن نبهني ولغيره : انني أحب ان أتلافى هذا الخطأ بما يرضي المتألمين، منه وادع لاهل الانصاف من النصارى اقتراح مايرونه و يرضونه من اعتذار او انتقاد لما كتب، او حذف الكراسة من المنار وطبع كراسة بدلها خالية من كل كلمة جارحة . وانما اقبل في هذا قول المعتدلين البرآء من التعصب كاسكندر بك عمون وسامي افندي الجريديني من فضلاء المحامين السوريين . على ان هذه الكتابة يصح ان تعد ترضية للمنصفين ودليلا على اننا لم ننشر تلك العبارة عمدا . واما المتعصبون فلا يرضيهم منا الا خروجنا من ديننا . فلا زالوا ساخطين وقد سعوا مع بعض المبشرين من قبل لاقناع الوكالة البريطانية بالغاء المنار ومنع اصداره ظنا منهم بان الجو يخلو لهم ولغيرهم من اعداء الاسلام فلا يجرأ احد على الرد عليهم .

(٧) ان سبب نشر هذه المقالة والمعنى الذي اردنا ان يفهمه المسلمون منها هو انه

إيمانا بالمسيح والانبياء اصح من إيمان المبشرين، وتكريمنا لهم خير من تكريمهم، فهم قد جعلوا فيما قالوه في المسيح عليه السلام بين الضدين فأطروه حتى اتخذوه ربا و إلها، ونقلوا في نسبه لامه وأبيه الناموسي (لا الحقيقي) انه من نسل سليمان بن داود من سبط يهوذا وقد ثبت في العهد العتيق عندهم (لا عندنا) ان بعض أجداده في هذا النسب (الذي سرده متى ولوقا في انجيليهما) من اولاد الزنا . وثبت عن مقدسهم بولس أنه صار لعنة لاجلهم. ونحن المسلمين نقول انه عليه السلام اهل لكل كرامة وفضيلة، وانه من روح الله وآية منه، ولكن ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله. ونقول انه طاهر من نسب طاهر، فنحن ننقل ما نقلنا عن العهدين العتيق والجديد مما لا يسعهم إنكاره، لاقامة الحجة عليهم، و إعلاما لعامة اهل ديننا بأننا لسنا في حاجة الى من يدعونا الى الايمان به عليه السلام، بل نحن أحق بأن ندعوا هؤلاء الدعاة الى تبرئته من اللعنة ومن دنس النسب، كما نبرئ سائر الانبياء عليهم السلام مما لا يليق بهم، ونحثو التراب في فم من يزعم اننا نقول كلمة فيهم تشعر بنقصهم . قال الابوصيري رحمه الله في لاميته

وأبيك ما أعطى يهوذا خاتما لزنا بمحصنة ولا منديلا
لووا بغير الحق ألسنة بما قالوه في ليا وفي راحيلا
ودعوا سليمان النبي بكافر واستهونوا افكا عليه مقولا

﴿ ٨ — صفوة الكلام وفصل الخطاب ﴾

ان المسلمين مدافعون لا معتدون، وهذا الدفاع فرض ديني عليهم، والمنار الذي يرد عليهم يوزع على المسلمين أيضا ليحذرهم من الارتداد عن دينهم أو يحول دون شكهم فيه ، والمشتركون فيه من غير المسلمين يعدون على اصابع اليد ، فما يكتبون يثير سخط الرأي العام الاسلامي ، ولذلك طفق المسلمون يؤلفون الجمعيات في مصر لمقاومتهم وما يكتبه المسلمون على كونه دفاعا لا يكاد يشعر العالم النصراني لانه يوزع على المسلمين دونهم ، الا اذا بحث عنه بعض المتعصبين من اصحاب الصحف او غيرهم . والمعلول يدوم بدوام علته. فنحن لا نترك الرد عليهم ما داموا يدعوننا الى دينهم قولا وكتابة و يتعرضون في خطبهم وكتبهم وصحفهم لديننا، فان تركوا تركنا ، واذا استمروا استمررنا ، ونلتزم الادب في العبارات بقدر فهمنا واجتهادنا، فمن كان ساعيا في منع ذلك باخلاص وحب للوفاق فليبدأ باسكات المبشرين عن ذكر كتابنا ونبينا واصول ديننا وفروعه ، و يبقى لهم مجال واسع في الدعوة الى دينهم بذكر محاسنه وما عندهم من الدلائل عليه ، ومن لم يرضه منا الا ان نسكت لهم عن الطعن في ديننا والتنفير عنه والتحريف لنصوصه فلا زال ساخطاً غاضباً حاقداً — الى ما شاء من لوازم تعصبه — ولعل سوء تأثير دؤلاء المبشرين سيضطر الحكومة والمحتلين الى وضع حد لهذا الامر إما بقانون أو بغير قانون، ولا نظن أن الانكليز يجبروننا على السكوت ويدعونهم يبغون كما يريدون

فصل (*)

فحينئذ يطلع منه على (المشهد الثاني عشر)

وهو مشهد الذل والانكسار ، والخضوع والافتقار للرب جل جلاله ، فيشهد في كل ذرة من ذراته الباطنة والظاهرة ضرورة تامة وافتقارا تاما الى ربه ووليه ، ومن بيده صلاحه وفلاحه وهداه وسعادته ، وهذه الحال التي تحصل لقلبه لا تنال العبارة حقيقتها ، وانما تدرك بالحصول ، فيحصل فيه كسرة خاصة لا يشبهها شيء ، بحيث يرى نفسه كالاناء المرضوض تحت الارجل الذي لا شيء فيه ، ولا به ولا منه ، ولا فيه منفعة ، ولا يرغب في مثله ، وانه لا يصلح للانتفاع الا بجبر جديد من صانعه وفاطره ، فحينئذ يستكثر في هذا المشهد ما من ربه اليه من الخير ، ويرى انه لا يستحق قليلا منه ولا كثيرا ، فأي خير ناله من الله استكثره على نفسه ، وعلم أن قدره دونه ، وأن رحمة ربه اقتضت ذكره به وسياقته اليه ، واستقل ما من نفسه من الطاعات لربه ، ورآها ولو ساوت طاعات الثقلين من أقل ما ينبغي لربه عليه ، واستكثر قليل معاصيه وذنوبه ، فان الكسرة التي حصلت لقلبه أوجبت له هذا كله ، فما أقرب الجبر من هذا القلب المكسور ! وما أدنى النصر والرحمة والرزق منه ! وما أنفع هذا المشهد له وأجداه عليه ! وذرة من هذا ونفس منه أحب الى الله من طاعات أمثال الجبال من المدلين المعجبين بأعمالهم وعلومهم وأحوالهم

وأحب القلوب الى الله سبحانه قلب قد تمكنت منه هذه الكسرة ، وملكته هذه الذلة ، فهو ناكس الرأس بين يدي ربه لا يرفع رأسه اليه حياء وخجلا من الله . قيل لبعض العارفين : أيسجد القلب ؟ قال : نعم يسجد سجدة لا يرفع رأسه منها الى يوم اللقاء . فهذا مسجود القلب ، فقلب لا تباشره هذه الكسرة فهو غير ساجد السجود المراد منه . واذا سجد القلب لله هذه السجدة العظمى سجدت معه جميع الجوارح ، وعنا الوجه حينئذ للحي القيوم ، وخشع الصوت والجوارح كلها ، وذل العبد وخضع واستكان ، ووضع خده على عتبة العبودية ،

(*) تابع لما نشر في ص ١١٢ من المجلد السابع عشر

ناظرا بقلبه الى ربه وويله نظر الذليل الى العزيز الرحيم ، فلا يرى الا متملقا لربه خاضعا له ، ذليلا مستعطفا له ، يسأله عطفه ورحمته ، فهو يترضى ربه كما يترضى المحب الكامل المحبة محبوبه المالك له ، الذي لاغنى له عنه ، ولا بد له منه ، فليس له هم غير استرضائه واستعطافه ، لانه لاحياة له ولا فلاح الا في قربه ورضاه عنه ، ومحبته له ، يقول : كيف أغضب من حياتي في رضاه ؟ وكيف أعدل عمن سعادتي وفلاحي وفوزي في قربه وحبه وذكره ؟

وصاحب هذا المشهد يشهد نفسه كرجل كان في كنف أبيه يغذوه بأطيب الطعام والشراب واللباس ، ويربيه أحسن التربية ، ويرقيه في درجات الكمال أتم ترقية ، وهو القيم بمصالحه كلها ، فبعثه أبوه في حاجة له فخرج عليه في طريقه عدو فأسره وكتفه وشده وثاقا ، ثم ذهب به الى بلاد الاعداء فسامه سوء العذاب ، وعامله بضد ما يكون أبوه يعامله به ، فهو يتذكر تربية والده وإحسانه اليه الفينة بعد الفينة ، فيهيج من قلبه لواعج الحسرات كلما رأى حاله ، وتذكر ما كان عليه ، وكل ما كان فيه . فبينما هو في أسر عدوه يسومه سوء العذاب ، ويريد نحره في آخر الامر ، اذ حانت منه التفاتة الى نحو ديار أبيه ، فرأى أباه منه قريبا ، فسعى اليه ، وألقى نفسه عليه بين يديه ، يستغيث يا أبتاه يا أبتاه يا أبتاه ! أنظر الى ولدك وما هو فيه ، ودموعه تستبق على خديه قد اعتنقه والتزمه ، وعدوه في طلبه ، حتى وقف على رأسه وهو ملتزم لوالده ممسك له . فهل تقول ان والده يسلمه مع هذه الحال الى عدوه ويخلي بينه وبينه ؟ فما الظن بمن هو أرحم بعبده من الوالد بولده ، ومن الوالدة بولدها ؟ اذ فر اليه ، وهرب من عدوه اليه ، وألقى نفسه طريحا ببابه ، يمرغ خده في ثرى أعتابه ، باكيا بين يديه يقول : يارب ! يارب ! ارحم من لارحم له سواك ، ولا ناصر له سواك ، ولا مؤوي له سواك ، ولا مغيث له سواك ، مسكينك وفقيرك وسائلك ومؤملك ومرجيك ، لاملجأ له ولا منجا له منك الا اليك ، أنت معاذه ، وبك ملاذه

يامن ألوذ به فيما أؤمله ومن أعوذ به مما أحاذره
لايجبر الناس عظما أنت كاسره ولا يهيضون عظما أنت جابره

﴿ فصل ﴾

فاذا استبصر في هذا المشهد ، وتمكن من قلبه ، و باشره وذاق طعمه وحلاوته ، ترقى منه الى (المشهد الثالث عشر) وهو الغاية التي شمر اليها السالكون ، وامها القاصدون ، ولحظ اليها العاملون

وهو مشهد العبودية والمحبة والشوق الى لقائه والابتهاج به ، والفرح والسرور به ، فتقرّ به عينه ، و يسكن اليه قلبه ، وتطمئن اليه جوارحه ، و يستولي ذكره على لسان محبه وقلبه ، فتصير خطرات المحبة مكان خطرات المعصية ، وارادات التقرب اليه والى مرضاته ، مكان ارادة معاصيه ومساخطه ، وحركات اللسان والجوارح بالطاعات ، مكان حركاتها بالمعاصي ، قد امتلأ قلبه من محبته ، ولهج لسانه بذكره وانقادت الجوارح لطاعته ، فان هذه الكسرة الخاصة لها تأثير عجيب في المحبة لا يعبر عنه .

ويحكى عن بعض العارفين قال : دخلت على الله من ابواب الطاعات كلها فما دخلت من باب الا رأيت عليه الزحام فلم أتمكن من الدخول ، حتى جئت باب الذل والافتقار فاذا هو اقرب باب اليه واوسعه ، ولا مزاحم فيه ولا معوق ، فما هو الا ان وضعت قدمي في عتبته فاذا هو قد اخذ بيدي وأدخلني عليه . وكان شيخ الاسلام ابن تيمية رضي الله عنه يقول : من اراد السعادة الابدية ، فليلزم عتبة العبودية . وقال بعض العارفين : لا طريق أقرب الى الله من العبودية ، ولا حجاب اغلظ من الدعوى ، ولا ينفع مع الاعجاب والكبر عمل واجتهاد ، ولا ضير مع الذل والافتقار بطالة ، يمشي بعد فعل الفرائض .

والمقصد ان هذه الذلة والكسرة الخاصة تدخله على الله ، وترميه على طريق المحبة ، فيفتح له منها باب لا يفتح له من غير هذه الطريق ، وان كانت طرق سائر الاعمال والطاعات تفتح للعبد ابوابا من المحبة ، لكن الذي يفتح منها من طريق الذل والانكسار والافتقار وازدراء النفس ، ورؤيتها بعين الضعف والعجز والعيب والنقص والذم ، بحيث يشاهدها ضيعة وعجزا وتفريطا وذنبا وخطيئة ، نوع آخر وفتح آخر .

والسالك بهذه الطريق غريب في الناس . هم في واد وهو في واد . وهي تسمى طريق الطير ، يسبق النائم فيها على فراشه السعادة فيصبح وقد قطع الركب ،

بينا هو يحدثك واذا به قد سبق الطرف وفات السعاة . فالله المستعان وهو خير الغافرين . وهذا الذي حصل له من آثار محبة الله له وفرحه بتوبة عبده ، فانه سبحانه يحب التوابين ويفرح بتوبتهم أعظم فرح وأكمله ، فكلما طالع العبد منه سبحانه عليه قبل الذنب وفي حال مواقعته وبعده ، وبره به وحلمه عنه واحسانه اليه . هاجت من قلبه لواعج محبته والشوق الى لقائه ، فان القلوب مجبولة على حب من احسن اليها ، واي احسان أعظم من احسان من يبارزه العبد بالمعاصي ، وهو يمده بنعمه ويعامله بألطافه ، ويسبل عليه ستره ، ويحفظه من خطفات أعدائه المتربصين له ادنى غرة ينالون منه بها بغيتهم ، ويردهم عنه ويحول بينهم وبينه ، وهو في ذلك كله بعينه يراه ويطلع عليه ، فالسماء تستأذن ربها ان تحصبه ، والارض تستأذنه ان تخسف به ، والبحر يستأذنه ان يغرقه ، كما في مسند الامام احمد عن النبي صلى الله عليه وسلم « ما من يوم الا والبحر يستأذن ربه ان يغرق ابن آدم ، والملائكة تستأذنه ان تعاجله وتهلكه (١) والرب تعالى يقول : دعوا عبدي فأنا أعلم به اذ أنشأته من الارض ، ان كان عبدكم فشأنكم به ، وان كان عبدي فمتى الى عبدي ، وعزتي وجلالي إن أتاني ليلا قبلته ، وأن أتاني نهارا قبلته ، وان تقرب مني شبرا تقربت منه ذراعا ، وان تقرب مني ذراعا تقربت منه باعا ، وان مشى الي هرولت اليه ، وان استغفرني غفرت له ، وان استقالني أقلته ، وان تاب الي تبت عليه . من اعظم مني جودا وكرما وانا الجواد الكريم ؟ عبيدي يبتونني بارزونني بالعظائم ، وانا أكلؤهم في مضاجعهم ، وأحرسهم على فرشهم ، من اقبل الي تلقيته من بعيد ، ومن ترك لأجلي أعطيته فوق المزيد ، ومن تصرف بحولي وقوتي ألنت له الحديد ، ومن اراد مرادي رددت ما يريد . أهل ذكري أهل محبتي ، واهل شكري أهل زيادتي ، واهل طاعتي أهل كرامتي ، وأهل معصيتي لا اقنطهم من رحمتي ، ان تابوا الي فأنا حبيبهم ، وان لم يتوبوا فانا طبيبهم ، أبتليهم بالمصائب ، لاطهرهم من المعايب »

(١) لعل المراد ان الانسان عرضة للهلاك في البر والبحر بجهله وخطاياه ، لولا عناية الله به وتسخيره هذه المخلوقات له . والكلام عن لسان الحال ، قد يكون أفصح من لسان المقال

﴿ نموذج آخر من الكتاب ﴾

في بعض منازل السير الى الله تعالى

فما تقدم هو نظر الصوفية في المعصية، واختلاف مشاهد أصناف الناس فيها بين من يعتبر ويندم ويزداد بعدها صلاحا ، ومن يرى انه مجبور ومعذور بالقدر ، ومن يرى انه مؤد لحق الطبيعة ووظائف الاعضاء الخ ولذلك جاء كله في مباحث التوبة . واما هذا النموذج فهو من نظرهم في سير السالكين الى الله تعالى أي الى معرفته العليا وما لهم من المنازل في طريقهم

﴿ فصل ﴾

ثم ينزل القلب منزل الاعتصام وهو نوعان : اعتصام بالله ، واعتصام بحبل الله . قال الله تعالى (واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا) وقال (واعتصموا بالله هو مولاكم ، فنعم المولى ونعم النصير) والاعتصام افتعال من العصمة وهو التمسك بما يعصمك ويمنعك من المحذور والمخوف، فالعصمة الحمية، والاعتصام الاحتماء ، ومنه سميت القلاع العواصم ، لمنعها وحمايتها . ومدار السعادة الدنيوية والاخروية على الاعتصام بالله ، والاعتصام بحبله ، ولا نجاة الا لمن تمسك بهاتين العصمتين .

فاما الاعتصام بحبله فانه يعصم من الضلالة ، والاعتصام به يعصم من الهلكة، فان السائر الى الله كالسائر على طريق نحو مقصده، فهو محتاج الى هداية الطريق والسلامة فيها ، فلا يصل الى مقصده الا بعد حصول هذين الامرين له ، فالدليل كفيل بعصمته من الضلالة ، وان يهديه الى الطريق ، والعدة والقوة والسلاح بها تحصل له السلامة من قطاع الطريق وآفاتها ، فالاعتصام بحبل الله يوجب له الهداية واتباع الدليل ، والاعتصام بالله يوجب له القوة والعدة والسلاح والمادة التي يستلئم بها في طريقه ، ولهذا اختلف عبارات السلف في الاعتصام بحبل الله بعد إشارتهم كلهم الى هذا المعنى ، فقال ابن عباس : تمسكوا بدين الله . وقال ابن مسعود : هو الجماعة . وقال : عليكم بالجماعة فانها حبل الله الذي أمر به ، وإن ما تكرهون في الجماعة والطاعة ، خير مما تحبون في الفرقة . وقال مجاهد وعطاء : بعهد الله . وقال قتادة والسدي وكثير

من أهل التفسير : هو القرآن . قال ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم « ان هذا القرآن هو حبل الله ، وهو النور المبين ، والشفاء النافع ، وعصمة من تمسك به ، ونجاة من تبعه » وقال علي بن ابي طالب رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم في القرآن « هو حبل الله المتين ، وهو الذكر الحكيم ، وهو الصراط المستقيم ، وهو الذي لا تزيغ به الاهواء ، ولا تختلف به الألسن ، ولا يخلق عن كثرة الرد ، ولا تشبع منه العلماء » وقال مقاتل : بامر الله وطاعته ، ولا تفرقوا كما تفرقت اليهود والنصارى . وفي الموطإ من حديث مالك عن سهيل بن أبي صالح عن ابيه عن أبي هريرة رضي الله عنه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « ان الله يرضى لكم ثلاثا ويسخط لكم ثلاثا : يرضى لكم ان تعبدوه ولا تشركوا به شيئا ، وأن تعتصموا بحبل الله جميعا ، وان تناصحوا من ولاه الله امركم . ويسخط لكم قيل وقال ، واضاعة المال ، وكثرة السؤال » رواه مسلم في الصحيح

قال صاحب المنازل : « الاعتصام بحبل الله هو المحافظة على طاعته مراقبا لأمره » ويريد بمراقبة الامر القيام بالطاعة لاجل ان الله أمر بها وأحبها ، لا لمجرد العادة أو لعلة باعثة سوى امتثال الامر ، كما قال طلق بن حبيب في التقوى : هي العمل بطاعة الله على نور من الله ، ترجو ثواب الله ، وترك معصية الله على نور من الله ، تخاف عقاب الله . وهذا هو الايمان والاحتساب المشار اليه في كلام النبي صلى الله عليه وسلم كقوله « من صام رمضان إيمانا واحتسابا ــ ومن قام ليلة القدر إيمانا واحتسابا ــ غفر له » فالصيام والقيام هو الطاعة ، والايمان مراقبة الامر (١) واخلاص الباعث هو أن يكون الايمان الآمر (١) لا شيء سواه ، والاحتساب رجاء ثواب الله ، فالاعتصام بحبل الله يحمي من البدعة وآفات العمل والله أعلم

---

(١) ضبط في نسختنا الآمر بصيغة اسم الفاعل وفي نسخة أخرى الامر بصيغة المصدر وهي الموافقة لقول صاحب المنازل والمحشي ، فاخترناها (٢) لم يوضع هذه في نسختنا علامة المد ، وفي نسخة لآمر ، والصواب ما اخترناه ، أي ان هذه هي التي يجب ان تكون اسم فاعل معرف والاولى هي المصدر .

﴿ فصل ﴾

وأما الاعتصام به فهو التوكل عليه ، والامتناع به ، والاحتماء به ، وسؤاله ان يحمي العبد ويمنعه ويعصمه ويدفع عنه ، فان ثمرة الاعتصام به هو الدفع عن العبد ، والله يدفع عن الذين آمنوا ، فيدفع عن عبده المؤمن اذا اعتصم به كل سبب يفضي الى العطب ، ويحميه منه ، فيدفع عنه الشبهات والشهوات وكيد عدوه الظاهر والباطن ، وشر نفسه . ويدفع عنه موجب أسباب الشر بعد انعقادها ، بحسب قوة الاعتصام به وتمكنه ، فتفقد في حقه أسباب العطب فيدفع عنه موجباتها ومسبباتها ، ويدفع عنه قدره بقدره ، وارادته بارادته ، ويعيذه به منه .

فصل

وأما صاحب المنازل فقال ﴿ الاعتصام بالله الترقي عن كل موهوم ﴾ الموهوم عنده ما سوى الله تعالى . والترقي عنه الصعود من شهود نفسه وشره ، وعطائه ومنعه وتأثيره ، الى الله تعالى . وهذه إشارة الى الفناء ، ومراده الصعود عن شهود ما سوى الله الى الله . والكمال في ذلك الصعود عن ارادة ما سوى الله الى ارادته . والاصفهاني يفسره بالصعود عن وجود ما سواه الى وجوده ، بحيث لا يرى لغيره وجودا البتة ، ويرى وجود كل موجود هو وجوده ، فلا وجود للعبد الا في الوهم الكاذب عنده .

قال ﴿ وهو على ثلاث درجات : اعتصام العامة بالخبر استسلاما وإذعانا

بتصديق الوعد والوعيد ، وتعظيم الأمر والنهي ، وتأسيس المعاملة على اليقين والانصاف ﴾ يعني أن العامة اعتصموا بالخبر الوارد عن الله استسلاما من غير منازعة ، بل ايمانا واستسلاما ، وانقادوا الى تعظيم الأمر والنهي والإذعان لهما ، والتصديق بالوعد والوعيد ، وأسسوا معاملتهم على اليقين ، لا على الشك والتردد (١) وسلوك طريقة الاحتياط كما قال القائل :

زعم المنجم والطبيب كلاهما لا تبعث الاجساد قلت اليكما
ان صح قولكما فلست بخاسر أو صح قولي فالخسار عليكما

---

(١) وفي نسخة : لا على شك والترديد . ولعله وتردد

هذه طريق أهل الريب والشك ، يقومون بالامر والنهي احتياطا ، وهذه الطريق لا تنجي من عذاب الله ولا يحصل لصاحبها السعادة ولا توصله الى المأمن .

وأما الانصاف الذي أسسوا معاملتهم عليه ، فهو الانصاف في معاملتهم لله وخلقه . فأما الانصاف في معاملة الله ، فأن يعطي العبودية حقها ، وأن لا ينازع ربه صفات الالهية التي لا تليق بالعبد ولا تنبغي له ، من العظمة والكبرياء والجبرية ، ومن انصافه لربه ان لا يشكر سواه على نعمه وبلاءه ، ولا يستعين بها على معاصيه ، ولا يحمد على رزقه غيره ، ولا يعبد سواه ، كما في الاثر الالهي « أني والجن والانس في نبإ عظيم : أخلقُ ويُعبد غيري ، وأرزق ويشكر سواي » وفي أثر آخر « ابن آدم ما انصفتني ، خيري اليك نازل ، وشرك اليّ صاعد ، أتحبب اليك بالنعم ، وأنا عنك غني ، وتبغض اليّ بالمعاصي وأنت فقير اليّ ، ولا يزال الملك الكريم ، يعرج اليّ منك بعمل قبيح » وفي أثر آخر « يا ابن آدم ! ما من يوم جديد ، الا يأتيك من عندي رزق جديد ، وتأتي عنك الملائكة بعمل قبيح ، تأكل رزقي وتعصيني ، وتدعوني فاستجيب لك ، وتسألني فأعطيك ، وأنا أدعوك الى جنتي فتأبى ذلك ، وما هذا من الانصاف » وأما الانصاف في حق العبيد فأن يعاملهم بمثل ما يحب أن يعاملوه به . ولعمر الله هذا الذي ذكر أنه اعتصام العامة هو اعتصام خاصة الخاصة (١) في الحقيقة ، ولكن الشيخ ممن رفع له علم الغناء فشمر اليه ، فلا تأخذه فيه لومة لائم ، ولا يرى مقاما أجل منه .

﴿ فصل ﴾

قال (واعتصام الخاصة بالانقطاع ، وهو صون الارادة قبضا ، واسبال المُلْك عن الخلق بسطا ، ورفض العلائق عزما ، وهو التمسك بالعروة الوثقى) يريد انقطاع النفس عن اغراضها من هذه الوجوه الثلاثة ، فيصون إرادته ويقبضها عما سوى الله سبحانه ، وهذا شبيه بحال أبي يزيد فيما أخبر به عن نفسه لما قيل له : ماتريد؟ فقال : أريد أن لا أريد

(١) وفي نسخة الخاصة

(الثاني) إسبال الخُلُق على الخلق بسطا ، وهذا حقيقة التصوف فانه كما قال ابو بكر الكتاني : التصوف خُلُق فمن زاد عليك في الخلق زاد عليك في التصوف. فان حسن الخُلُق وتزكية النفس بمكارم الاخلاق ، يدل على سعة قلب صاحبه ، وكرم نفسه وسجيته . وفي هذا الوصف يكف الاذى ويحمل الاذى ، ويوجد الراحة ، ويدير خده الايسر لمن لطم الايمن ، ويعطي رداءه لمن سلبه قميصه ، ويمشي ميلين مع من سخره ميلا (١) وهذا علامة انقطاعه عن حظوظ نفسه واغراضها .

وأما رفض العلائق عزما ، فهو العزم التام على رفض العلائق وتركها في ظاهره وباطنه ، والاصل هو قطع علائق الباطن ، فمتى قطعها لم تضره علائق الظاهر ، فمتى كان المال في يدك وليس في قلبك لم يضرك ولو كثر ، ومتى كان في قلبك ضرك ولو لم يكن في يدك منه شيء . قيل للامام أحمد : أيكون الرجل زاهدا ومعه ألف دينار ؟ قال : نعم على شريطة ألا يفرح اذا زادت ولا يحزن اذا نقصت . ولهذا كان الصحابة أزهد الأمة مع ما بأيديهم من الأموال . وقيل لسفيان الثوري : أيكون ذو المال زاهدا ؟ قال : نعم إن كان اذا زيد في ماله شكر ، وان نقص شكر وصبر . وأما يحمد قطع العلائق الظاهرة في موضعين : حيث يخاف منها ضررا في دينه ، أو حيث لا يكون فيها مصلحة راجحة ، والكمال من ذلك قطع العلائق التي تصير

(١) قوله : وفي هذا الوصف الخ يريد به تزكية النفس ، وهو غير حسن الخلق فان التزكية تهذيب فهي مبدأ ، وحسن الخلق غاية . وفي طور التزكية والتهذيب يحسن ما ذكره من العمل بوصايا الانجيل ، كقوله : من لطمك على خدك الايمن فأدر له الايسر . الخ ودين المسيح كله تمهيد لدين محمد عليهما السلام ، بل هما دين واحد جاء القسم الاول منه تمهيدا للثاني ، كما اخبر المسيح اصحابه بأنه لا يستطيع ان يقول لهم كل شيء ، وبشرهم بأنه سيأتي بعده البارقليط الذي يقول كل شيء من حقائق الدين . وهو محمد (ص) بدليل انه لم يجئ بعده نبي غيره ، وانه هو الذي بين كل شيء . وفصل بين السائرين الى الله تعالى بالتزكية والتهذيب وبين الواصلين اليه ، وبين فضيلتي العدل والاحسان وغير ذلك

كلاليب على الصراط تمنعه من العبور ، وهي كلاليب الشهوات والشبهات ، ولا يضره ما تعلق به بعدها .

﴿ فصل ﴾

قال (واعتصام خاصة الخاصة بالانصال ، وهو شهود الحق تفريدا ، بعد الاستحذاء له تعظيما ، والاشتغال به قربا) لما كان ذلك الانقطاع ، موصلا الى هذا الاتصال ، كان ذلك للمتوسطين ، وهذا عنده لأهل الوصول . ويعني بشهود الحق تفريدا ، أن يشهد الحق سبحانه وحده منفردا ولا شيء معه ، وذلك لفناء الشاهد في الشهود ، والحوالة في ذلك عند القوم على الكشف . وقد تقدم ان هذا ليس بكمال ، وان الكمال ان يفني بمراده عن مراد نفسه . واما فناؤه بشهوده عن شهود ماسواه ، فدون هذا الفناء في الرتبة كما تقدم .

وأما قوله بعد الاستحذاء له تعظيما . فالشيخ قدس الله روحه لكثرة لهجه بالاستعارات عبر عن معنى لطيف عظيم بلفظة الاستحذاء التي هي استفعال من المحاذاة ، وهي المقابلة التي لا يبقى فيها جزء من المحاذي خارجا عما حاذاه . بل قد واجهه وقابله بكليته وجميع اجزائه . (١) ومراده بذلك القرب وارتفاع الوسائط المانعة منه ، ولا ريب ان العبد يقرب من ربه ، والرب يقرب من عبده ، فاما قرب العبد فكقوله تعالى (واسجد واقترب) وقوله في الاثر الالهي « من تقرب مني شبرا تقربت منه ذراعا » وكقوله « وما تقرب اليّ عبدي بمثل أداء ما افترضت عليه ، ولا يزال عبدي يتقرب اليّ بالنوافل حتى احبه ، فاذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها ، فبي يسمع وبي يبصر وبي يبطش وبي يمشي » وفي الحديث الصحيح « أقرب

(١) هذا التفسير للاستحذاء لم نجده في معاجم اللغة كلسان العرب والقاموس وشرحه بل المعروف فيها ان معنى استحذى فلان فلانا ، طلب منه أن يلبسه حذاءه . كاستطعمه واستكساه . واظن أن الاستحذاء في كلام الهروي بالحاء المهملة وهو الخضوع والانكسار لله تعالى . وانما تكلف المصنف له هذا التفسير لأنه وجد نسخ المنازل فذكره الاستحذاء بالمهملة

ما يكون الرب من عبده في جوف الليل الآخر » وفي الحديث أيضا « أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد » وفي الحديث الصحيح لما ارتفعت أصواتهم بالتكبير مع النبي صلى الله عليه وسلم في السفر فقال « يا أيها الناس أربعوا على أنفسكم ، انكم لا تدعون أصم ولا غائبا ، ان الذي تدعونه سميع قريب ، أقرب الى أحدكم من عنق راحلته » فعبر الشيخ عن طلب القرب منه ورفض الوسائط الحائلة بينه وبين القرب المطلوب الذي لا تقر عيون عابديه وأوليائه الا به ، بالاستحذاء . وحقيقته موافاة العبد الى حضرته وقدامه وبين يديه ، عكس حال من نبذه وراءه ظهريا ، واعرض عنه ونأى بجانبه ، بمنزلة من ولى المطاع ظهره ، ومال بشقه عنه .

وهذا الامر لا يدرك معناه الا بوجوده وذوقه ، وأحسن ما يعبر عنه بالعبارة النبوية المحمدية ، وأقرب عبارات القوم انه التقريب برفع الوسائط التي بارتفاعها يحصل للعبد حقيقة التعظيم . فلذلك قال: الاستحذاء له تعظيما . ومن اراد فهم هذا كما ينبغي فعليه بفهم اسمه تعالى الباطن وفهم اسمه القريب ، مع امتلاء القلب بحبه ، ولهج اللسان بذكره . ومن هاهنا يؤخذ العبد الى الفناء الذي كان مشمرا اليه ، عاملا عليه ،

فان كان مشمرا الى الفناء المتوسط وهو الفناء عن شهود السوى ، لم يبق في قلبه شهود لغيره البتة ، بل تضمحل الرسوم وتفنى الإشارات ، ويفنى من لم يكن ويبقى من لم يزل . وفي هذا المقام يجيب داعي الفناء طوعا ورغبة لا كرها ، لأن هذا المقام امتزج فيه الحب بالتعظيم مع القرب ، وهو منتهى سفر الطالبين لمقام الفناء

وان كان هذا مشمرا للفناء العالي ، وهو الفنا ، عن ارادة السوى ، لم يبق في قلبه مراد بزاحم مراده الديني الشرعي النبوي القرآني ، بل يتحد المرادان فيصير عين مراد الرب هو مراد العبد . وهذا حقيقة المحبة الخالصة ، وفيها يكون الاتحاد الصحيح . وهو الاتحاد في المراد لا في المريد ولا في الارادة . فتدبر هذا الفرقان في هذا الموضع الذي طالما زلت فيه اقدام السالكين ، وضلت فيه افهام الواجدين .

وفي هذا الباب (١) حقيقة يفنى من لم يكن ارادة وإيثارا ومحبة وتعظيما وخوفا

(١) وفي نسخة « المقام »

ورجاء وتوكلا ، ويبقى من لم يزل . وفيه ترتفع الوسائط بين الرب والعبد حقيقة ، ويحصل (١) له الاستحذاء المذكور مقرونا بغاية الحب وغاية التعظيم . وفي هذا المقام يجيب داعي الفناء في المحبة طوعا واختيارا لا كرهاء بل ينجذب اليه انجذاب قلب المحب وروحه الذي قد ملأت المحبة قلبه ، بحيث لم يبق فيه جزء فارغ منها الى محبوبه الذي هو اكمل محبوب واجله واحقه بالحب . وهذا الفناء اوجبه الحب الكامل الممتزج بالتعظيم والاجلال والقرب ، ومحو ما سوى مراد المحبوب من القلب ، بحيث لم يبق في القلب الا المحبوب ومراده . وهذا حقيقة الاعتصام به وبحبله والله المستعان .

واما قوله : والاشتغال بقربا . أي يشغله قرب الحق عن كل ما سواه ، وهذا حقيقة القرب . ألا ترى ان القريب من السلطان جدا المقبل عليه المكلم له لا يشتغل بشيء سواه البتة ؟ فعلى قدر القرب من الله يكون اشتغال العبد به . والله اعلم .

﴿ فصل ﴾

ومن منازل اياك نعبد واياك نستعين (منزلة الفرار) قال الله تعالى (ففروا الى الله) وحقيقة الفرار الهرب من شيء الى شيء ، وهو نوعان : فرار السعداء وفرار الاشقياء . ففرار السعداء الفرار الى الله عز وجل ، وفرار الاشقياء الفرار منه لا اليه . واما الفرار منه اليه ففرار اوليائه . قال ابن عباس في قوله تعالى (ففروا الى الله) فروا منه اليه ، واعملوا بطاعته . وقال سهل بن عبد الله : فروا مما سوى الله الى الله . وقال آخرون : اهربوا من عذاب (٢) الله الى ثوابه بالايمان والطاعة .

وقال صاحب المنازل (هو الهرب مما لم يكن الى من لم يزل ، وهو على ثلاث درجات : فرار العامة من الجهل الى العلم عقدا وسعيا ، ومن الكسل الى التشمير جدا وعزما ، ومن الضيق الى السعة ثقة ورجاء) يريد بما لم يكن « الخلق » وبما لم يزل « الحق » وقوله : فرار العامة من الجهل الى العلم عقدا وسعيا ـ الجهل نوعان : عدم العلم بالحق النافع ، وعدم العمل بموجبه ومقتضاه ، فكلاهما جهل لغة وعرفا وشرعا

(١) وفي نسخة « ويجعل » (٢) نسخة « عقاب »

وحقيقة. قال موسى (أعوذ بالله ان اكون من الجاهلين) لما قال له قومه (أتتخذنا هزوا) أي المستهزئين (١) وقال يوسف الصديق (وإلا تصرف عني كيدهن أصبُ اليهن وأكن من الجاهلين) أي من مرتكبي ما حرمت عليهم. وقال تعالى (انما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة) قال قتادة: اجمع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ان كل ما عصي الله به فهو جهالة. وقال غيره: أجمع الصحابة ان كل من عصى الله فهو جاهل. وقال الشاعر

ألا لايجهلن احد علينا فنجهل فوق جهـل الجاهلينا

وسمي عدم مراعاة العلم جهلا، اما لأنه لم ينتفع به فنزل منزلة الجهل، واما لجهله بسوء مأتجني عواقب فعله. فالفرار المذكور هو الفرار من الجهلين - من الجهل بالعلم الى تحصيله اعتقادا ومعرفة وبصيرة، ومن جهل العمل الى السعي النافع والعمل الصالح قصدا وسعيا.

قوله «ومن الكسل الى التشمير جدا وعزما» أي يفر من اجابة داعي الكسل الى داعي العمل والتشمير، بالجد والاجتهاد. والجد هو هاهنا صدق العمل واخلاصه من شوائب الفتور وعوده التسويف والتهاون، وهو تحت السين وسوف وعسى ولعل. فهي اضر شيء على العبد. وهي شجرة ثمرها الخسران والندامات. والفرق بين الجد والعزم ان العزم صدق الارادة واستجماعها، والجد صدق العمل وبذل الجهد فيه. وقد أمر الله سبحانه وتعالى بتلقي أوامره بالعزم والجد فقال (خذوا ما آتيناكم بقوة) وقال (وكتبنا له في الالواح من كل شيء موعظة وتفصيلا لكل شيء فخذها بقوة) وقال (يا يحيى خذ الكتاب بقوة) أي بجد واجتهاد وعزم، لا كمن يأخذ ما أمر به بتردد وفتور.

وقوله «ومن الضيق الى السعة ثقة ورجاء» يريد هروب العبد من ضيق صدره بالهموم والغموم والاحزان والمخاوف التي تعتريه في هذه الدار من جهة نفسه، وما هو خارج عن نفسه مما يتعلق باسباب مصالحه ومصالح من يتعلق به، وما يتعلق بماله وبدنه وأهله وعشيرته - يهرب من ضيق صدره بذلك كله الى سعة فضاء الثقة

(١) تفسير للجاهلين

بالله تبارك وتعالى ، وصدق التوكل عليه وحسن الرجاء لجميل صنعه به ، وتوقع المرجو من لطفه وبره . ومن أحسن كلام العامة قولهم : لاهم مع الله . قال الله تعالى (ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب) قال الربيع بن خيثم : يجعل له مخرجا من كل ماضاق على الناس . وقال أبو العالية : مخرجا من كل شدة . وهذا جامع لشدائد الدنيا والآخرة ومضايق الدنيا والآخرة . فان الله يجعل للمتقي من كل ماضاق على الناس واشتد عليهم في الدنيا والآخرة مخرجا . وقال الحسن : مخرجا مما نهاه عنه ، (ومن يتوكل على الله فهو حسبه) أي كافيه من يثق به في نوائبه ومهماته ـ يكفيه كل ما أهمه . والحسب الكافي « حسبنا الله » كافينا الله . وكلما كان العبد حسن الظن بالله حسن الرجاء له صادق التوكل عليه ، فان الله لا يخيب أمله فيه أبتة . فانه سبحانه لا يخيب أمل آمل ، ولا يضيع عمل عامل . وعبر عن الثقة وحسن الظن بالسعة ، فانه لا أشرح للصدر ولا أوسع له بعد الايمان من ثقته بالله ورجائه له وحسن ظنه به

﴿ فصل ﴾

قال (وفرار الخاصة من الخبر الى الشهود ، ومن الرسوم الى الاصول ، ومن الحظوظ الى التجريد) يعني انهم لا يرضون ان يكون ايمانهم عن مجرد خبر حتى يترقوا منه الى مشاهدة المخبر عنه ، فيطلبون الترقي من علم اليقين بالخبر الى عين اليقين بالشهود ، كما طلب ابراهيم الخليل صلوات الله وسلامه عليه ذلك من ربه إذ قال (رب أرني كيف تحيي الموتى ، قال: أولم تؤمن؟ قال بلى ، ولكن ليطمئن قلبي) فطلب ابراهيم ان يكون اليقين عيانا ، والمعلوم مشاهدا . وهذا هو المعنى الذي عبر عنه النبي صلى الله عليه وسلم بالشك في قوله « نحن احق بالشك من ابراهيم » حيث قال « رب أرني كيف تحيي الموتى » وهو صلى الله عليه وسلم لم يشك ولا ابراهيم حاشاهما من ذلك . وانما عبر عن هذا المعنى بهذه العبارة . هذا احد الأقوال في الحديث. وفيه قول ثان انه على وجه النفي ، اي لم يشك ابراهيم حيث قال ما قال ، ولم نشك نحن . وهذا القول صحيح أيضا . اي لو كان ما طلبه للشك لكنا نحن احق به

منه ، لكن لا يطلب ما طلب شكا ، وانما طلبه طمأنينة .

فالمراتب ثلاث : علم يقين يحصل عن الخبر ، ثم يتجلى (١) حقيقة المخبر عنه للقلب أو البصر حتى يصير العلم به عين يقين ، ثم يباشره ويلابسه فيصير حق يقين ، فعلمنا بالجنة والنار الآن علم يقين ، فاذا أزلفت الجنة للمتقين في الموقف ، و برزت الجحيم للغاوين ، وشاهدوها عيانا ، كان ذلك عين يقين ، كما قال تعالى (لترونّ الجحيم * ثم لترونّها عين اليقين) فاذا دخل اهل الجنة الجنة واهل النار النار فذلك حق اليقين . وسنزيد ذلك ايضاحا ان شاء الله تعالى أذا انتهينا اليه .

واما قوله « ومن الرسوم الى الاصول » يريد بالرسوم ظواهر العلم والعمل ، وبالاصول حقائق الايمان ومعاملات القلوب واذواق الايمان وواردانه ، فيفر من إحكام العلم والعمل الى خشوع السر للعرفان ، فان أرباب العزائم في السير لا يقفون برسوم الاعمال وظواهرها ، ولا يعتدون الا بأرواحها وحقائقها ، وما يثبته لهم التعرف الالهي وهو نصيبهم من الامر . والتعرف الالهي لا يقتضي مفارقة الامر كما يظن قطاع الطريق وزنادقة الصوفية ، بل يستخرج منهم حقائق الامر واسرار العبودية وروح المعاملة ، فحظهم من الامر حظ العالم بمراد المتكلم من كلامه تصريحا وايماء وتنبيها واشارة . وحظ غيرهم منه حظ التالي لمحفظا بلا فهم ولا معرفة لمراده ، وهؤلاء احوج شيء الى الامر لانهم لم يصلوا الى تلك التعرفات والحقائق الا به ، فالمحافظة عليه لهم علما ومعرفة وعملا وحالا ضرورية لا عوض لهم عنه البتة .

وهذا القدر هو الذي فات الزنادقة وقطاع الطريق من المنتسبين الى طريقة القوم ، فانهم لما علموا أن حقائق هذه الاوامر هي المطلوبة ارواحها ، لا صورها واشباحها ورسومها ، قالوا : نجمع همتنا على مقاصدها وحقائقها ، ولا حاجة لنا الى رسومها وظواهرها ، بل الاشتغال برسومها اشتغال عن الغاية بالوسيلة ، وعن المطلوب لذاته بالمطلوب لغيره . وغرهم ما رأوا فيه الواقفين مع رسوم الاعمال وظواهرها دون مراعاة حقائقها ومقاصدها وارواحها ، فرأوا نفوسهم أشرف من نفوس أولئك وهممهم اعلى ، وانهم المشتغلون باللب وأولئك بالقشر ، فتركب من تقصير هؤلاء

(١) لعلها تتجلى بتاءين ، وفي نسخة أخرى « نجلي » بناء ونون

وعدوان هؤلاء تعطيل جملة الامر ـ هؤلاء عطلوا سره ومقصوده وحقيقته ، وهؤلاء عطلوا رسمه وصورته ، فظنوا انهم يصلون الى حقيقته ، من غير رسمه وظاهره ، فلم يصلوا الا الى الكفر والزندقة ، وجحدوا ما علم بالضرورة مجيء الرسل (١) به . فهؤلاء كفار زنادقة منافقون ، وأولئك مقصرون غير كاملين . والقائمون بهذا وهذا هم الذين يرون أن الامر متوجه الى قلوبهم قبل جوارحهم ، وان على القلب عبودية في الامر كما على الجوارح ، وان تعطيل عبودية القلب بمنزله تعطيل عبودية الجوارح وان كمال العبودية قيام كل من الملك وجنوده (٢) بعبوديته ، فهؤلاء خواص اهل الايمان ، واهل العلم والعرفان .

﴿ فصل ﴾

قوله « ومن الحظوظ الى التجريد » يريد الفرار من حظوظ النفوس على اختلاف مراتبها ، فانه لا يعرفها الا المعتنون بمعرفة الله ومراده وحقه على عباده ، ومعرفة نفوسهم وأعمالهم وآفاتها . ورب مطالب عالية لقوم من العباد هي حظوظ لقوم آخرين يستغفرون الله منها ويفرون اليه منها ، يرونها حائلة بينهم وبين مطلوبهم . وبالجملة فالحظ ما سوى مراد الله الديني منك كائنا ما كان ، وهو ما يبرح حظ محرم الى مكروه الى مباح الى مستحب غيره احب الى الله منه ، ولا يتميز هذا الا في مقام الرسوخ في العلم بالله وامره ، وبالنفس وصفاتها واحوالها . فهناك يتبين له الحظوظ من الحقوق ، ويفر من الحظ الى التجريد . واكثر الناس لا يصلح لهم هذا لانهم انما يعبدون الله على الحظوظ ، وعلى مرادهم منه ، واما تجريد عبادته على مراده من عبيده :

فتلك منزلة لم يعطها احد   سوى نبي وصديق من البشر
والزهد زهدك فيما ليس زهدك في   ماقد أبيح لنا في محكم السور
والصدق صدقك في تجريدها وكذا (م) الاخلاص تخليصها ان كنت ذا بصر
كذا توكل ارباب البصائر في   تجريد أعمالهم من ذلك الكدر
كذاك توبتهم منها فهم ابدا   في توبة او يصيروا داخل الحفر

---

(١) وفي نسخة الرسول (٢) يريد بالملك القلب وبجنوده الاعضاء

وبالجملة فصاحب هذا التجريد لا يتقسم من الله بامر يسكن اليه دون الله ، ولا يفرح بما حصل له دون الله ، ولا يأسى على ما فاته سوى الله ، ولا يستغني برتبة شريفة وان عظمت عنده او عند الناس ، فلا يستغني الا بالله ، ولا يفتقر الا الى الله ، ولا يفرح الا بموافقته لمرضاة الله ، ولا يحزن الا على ما فاته من الله ، ولا يخاف الا من سقوطه من عين الله ، واحتجاب الله عنه : فكله بالله ، وكله لله ، وكله مع الله ، وسيره دائما الى الله ، قد رفع له علم فشمر اليه ، وتجرد له مطالبه فعمل عليه ، تناديه الحظوظ : الي ! وهو يقول : انما أريد من اذا حصل لي حصل لي كل شي ، واذا فاتني فاتني كل شي ، فهو مع الله مجرد عن خلقه ، ومع خلقه مجرد عن نفسه ، ومع الامر مجرد عن حظه — اعني الحظ المزاحم للامر ، واما الحظ المعين على الامر ، فانه لا يحطه تناوله عن مرتبته ، ولا يسقطه من عين ربه .

وهذا ايضا موضع غلط فيه من غلط من الشيوخ فظنوا ان ارادة الحظ نقص في الارادة ، والتحقيق فيه ان الحظ نوعان : حظ يزاحم الامر ، وحظ يؤازر الامر وينفذه ، الاول هو المذموم والثاني ممدوح . وتناوله من تمام العبودية . فهذا لون وهذا لون .

(للنموذج بقية)

(المنار) : أرأيتم ايها المبشرون الذين تدعوننا الى النصرانية هذه المعارف العالية في الايمان ، والعلم بالله وبمزايا الانسان ، وهذه الفضيلة والكمال في الاسلام ؟ — هذا النموذج نقطة من بحر كلام علمائنا في منازل السالكين العارفين . أرأيتم من ارتقى في الدين الى الذروة العليا أيمكن اقناعه بأن النزول عنها الى الدرجات التي هي دونها ، خير له من البقاء على ارتقائه وكماله فيها ؟ أيرضى من هذا حظه من الدين والايمان ان يشغل خياله ولسانه باسم يسوع ، وصورة يسوع ، وتثليث يسوع ، وفداء يسوع ، الذي لا يعقل ؟ اما والله لو كان يسوع وتلاميذ يسوع ويوحنا الذي عمد يسوع ومسح رأسه ودعا له بالبركة ، ومعهم موسى واسرائيل وكل انبياء ابنائه احياء وجاءهم محمد (عليهم الصلاة والسلام) بهذا القرآن لما وسعهم الا اتباعه ، وقد كانوا كلهم على الحق والتوحيد الذي نسختموه بتثليث والفداء فاربعوا على ظلعكم ، وادعوا الى دينكم البراهمة والبوذيين وامثالهم الذين كان لهم ثالوث كثالوثكم ، فأولئك لا يبعد أن ينتقلوا من ثالوث الى ثالوث . واما صاحب التوحيد الذي هو أكمل واعلى معارف البشر ، فلا يترك التوحيد الى ما هو دونه .